

رثاء بغداد في شعر شمس الدين محمد الواعظ الكوفي

(ت ٦٧٥ هـ)، دراسة تحليلية

أ.د. عبد العظيم فيصل صالح
أ.م.د. أحمد حسين علي
جامعة سامراء/كلية التربية

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى اله وصحبه الغر الميامين... أما بعد:

فقد حظيت مدينة الكوفة بتاريخ عميق وأصيل عبر مختلف العصور وبجميع نواحي الحياة الدينية والسياسية والأدبية والاجتماعية، ولابد لي أن اتحدث عن بعض تلك الجوانب " الأدبية" عن شخصية من شخصيات هذه المدينة هو شمس الدين محمد الواعظ الهاشمي الكوفي الذي يمتاز شعره بمكانة كبيرة في جوانب الحياة المختلفة، لما للشعر من أثر عميق في نفسية المتلقي، ولا سيما الإنسان العربي فهو كالدّم يسير في عروقه، مما يؤكد ويعزز الأهمية الكبرى التي يحظى بها الشعر والشاعر فهو لسان حال قومه يكشف عن همومهم وعواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم تجاه ما يعانون من مشاكل وهموم، لذلك نرى شاعرنا قد بين حال وطنه وما عاناه من محن انهطلت عليه كالطرر وقد بين ذلك من خلال الأشعار التي رثى بغداد أبان غزو المغول وسقوطها عام (٦٥٦هـ) وهذه المراثي جعلته شيخ رثاء بغداد وبهذه التسمية يكشف عن مكنون حبه لوطنه والجراحات التي ألمت به، كما أنه تغزل في مراثيه، ببغداد وهي تقطر شوق ومحبة لهذا الوطن الذي عانى من المصائب والشدائد الكثير، ولم يتوقف الرناء عنده بل رثى بعض شخصيات وطنه التي كان لها الأثر الكبير في نفسية الكوفي، ومن الأغراض الشعرية الأخرى التي تناولها الشاعر المديح وتأسيساً على ذلك سيتناول البحث هذه الشخصية الكوفية وفق الخطة الآتية :

المطلب الأول: حياته

ستتناول الدراسة فيه: اسمه ونسبه، ولقبه، ونشأته، وأولاده، شيوخه وتلاميذه، المهنة التي مارسها، ووفاته .

المطلب الثاني: مرثياته

ستتناول الدراسة فيه الأغراض الشعرية التي تحدث عنها الشاعر، وهي تتم عن شاعر حذق وظف شعره من أجل خدمة وطنه والتي عكست من خلالها وطنيته التي تغنى بها في شعره، فقد تناول رثاء بغداد وما أصابها من من نكبة وويلات وكذلك بعض أغراض الغزل.

أما المنهج الذي سأتبعه في الدراسة فهو المنهج التحليلي الوصفي .
وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول: حياته

اسمه ونسبه

اختلفت المصادر في اسمه واسم أبيه وقد يعود ذلك نتيجة الاضطرابات التي حدثت في هذه المرحلة وهي بحاجة إلى دراسة وتمحيص لبيان الحقيقة، فقد قال الكتبي هو: محمود بن أحمد بن عبدالله بن داود بن محمد بن علي الهاشمي الحنفي^١
وقال في موضع آخر: الشيخ شمس الدين محمد بن عبدالله^٢ وقال المحقق^٣ والصواب: محمد بن عبيدالله^٤.

وقيل هو: محمود بن عابدين بن عبدالله بن داود بن محمد بن علي الهاشمي الواعظ الحنفي شمس الدين الكوفي^٥

وقال اليونيني: شمس الدين محمد الواعظ المعروف بابن الكوفي^٦.

وقال المحقق: ((والراجع عندنا أنه محمد بن عبيدالله الكوفي))^٧.

وقال: ((هو من ولد الحارث بن عبدالمطلب))^٨.

وقال: ((والراجع عندنا: انه محمد بن عبيدالله الكوفي))^٩

نشأته

نشأ الشاعر في الكوفة وأمضى صباه بها فهي موطنه الاول، وقد اشار إلى هذا في قوله:

حنت النفس إلى أوطانها وإلى من بان من خلانها
بديار حيا من منزل سلم الله على سكانها

تلك دار كان فيها منشئي من غريبها إلى كوفها
وبها نوق الصبا أرسلتها هملا ترحح في أرسانها^١
إذا نشأ الشاعر وترعرع في تلك المنطقة التي اشار إليها في شعره مما يعكس تعلقه وتمسكه
بها وهي الكوفة ذلك المكان الذي له الأثر الكبير في نفسية الشاعر مما يؤكد بانه قد ارتحل
منها وسافر إلى مكان آخر فبعد أن نشأ طفلاً مكتمل الذكاء قوي النشاط يلوح على
مخيلته أثر النبوغ والفراسة كما أن رعاية والديه في نشأته لها أثر في نضج عقليته وتهذيبها
وتهيئته لتلقي العلم والادب وليس من شك في أن المحيط يؤثر على عقلية الطفل فأن
كان المحيط صالحاً خصب المنيب نشأ فيه الوليد نشأه نحوها يؤمل لها مستقبل زاهر وتمكن
من أكتاف ثمرات جهوده وإذا كان المحيط فاسداً فأن مصير الطفل الذي نشأ فيه الفشل
المؤكد في الحياة ويبقى يتمرغ في أحضان الجهل أو الرذيلة وشاعرنا المترجم نشأ في محيط
أدبي علمي يعد من أزهى العصور التي مرت على بغداد عصراً حيث زهر فيه المجد
الباذخ منذ تناولت فيه المدرسة المستنصرية على ضفاف دجلة تعلم الشاعر القراءة
والكتابة ولما عض على قارحه الكمال دخل المستنصرية ولازم علماءها فقرأ النحو
والصرف وفنون الادب وبعد ذلك درس العلوم الدينية وتفسير الحديث والفقه وعني
بدراسة الفقه الحنفي على مدرستها العالم أبو حفص عمر بن محمد بن أبي نصر
الفرغاني وهو شيخ صالح قدم بغداد وسكن برباط الزوزني ثم رحل الى واسط وأقام
عند بني الرفاعي فأكرموا به بال كثير حتى ان محمد بن الرفاعي دخل عليه فصبحه غلطا
وكان مساء فقال:

أتاني نور عيني ومقلتي ففرج عني كربتي وأزاح
فصبحته عند المساء لأنه بطلعته رد المساء صباح^١

وبعد ان انهى الشاعر دراسته بالمستنصرية ومر بمختلف المراحل لاحت عليه علامات
النضج وقد بدا نظم الشعر وهو في عنفوان الشباب وفي بدء دراسته حيث كانت الدراسة
في ذلك العصر صعبة اذا كان الطالب يمر بمراحل مختلفة للدراسة العلوم والآداب. ولما
اكمل دراسته لازم من فطاحل علماء بغداد وادابها وفقهائها خاصة في الفقه الحنفي
على مذهب الشيخ النعمان بن ثابت رحمه الله تعالى.

اولاده

له ابن اسمه ((جلال الدين ويكنى بأبي هاشم ، وكان قد ولد ببغداد في شهر رمضان سنة ٦٦٣ هـ ، ... وقد نشأ جلال الدين على طريقة أبيه ، سمع من الرشيد السلامي ومن ابن الطبال ... وخم من شيوخ المستنصرية، ... وتوفي في بغداد في شهر رجب سنة ٧٤٦ هـ ، ودفن إلى جانب والده بقرب مشهد أبي حنيفة بالأعظمية))^{١٢} شيوخه وتلامذته

إن الأخبار التي وردت عن شيوخ وتلامذة شمس الدين محمد الواعظ الكوفي قليلة ونادرة وقد يرجع ذلك بسبب المرحلة التي عاشها وما حدث في بغداد من غزو واتلاف للمصادر (الكتب) ادى إلى ضياع الأخبار التي تكشف عن تلك الشخصية ، ((إن الشاعر شمس الدين قدم بغداد وسمع منه شيخنا شمس الدين أبو المناقب محمد بن أحمد الهاشمي الحارثي الكوفي بمنزله بالجانب الغربي بقصر عيسى ، في ليلة الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وستمئة ، عن شرف الدين إسماعيل أبي سعيد بن علي بن منصور بن محمد بن الحسين الآمدي نعن علي بن هبة الله بن سلامة الشافعي المعروف بابن الحميري))^{١٣} الحرف التي مارسها

كان الكوفي رحمه الله أديبا وخطيبا زاهدا و عندما انهى الشاعر دراسته في المستنصرية وكان من الفائقين على اقرانه لنبوغه وعبقريته بزغ نجمه في محافل بغداد واخذت افواه الشعب تردد قصائده الحسان التي انطوت على معاني غزيرة وافكار ناضجة ولما بلغ ذكره مسامع الخليفة المستعصم بالله العباسي عينه مدرسا في المدرسة التشية احدى المدارس البغدادية المشهورة الذي قد قام بتشيدها الامير التركماني خمار تكين التشي وكان هذا خادما عند الامير تشي بن الب ارسلان بن داؤد سلجوق حيث اسسها لأصحاب ابي حنيفة لتكون بعد وفاته خيرا اثر يشيد بذكره.^{١٤} وقال الذهبي "خطيب جامع السلطان الواعظ الأديب شمس الدين الكوفي الهاشمي الشاعر مدرس التشية"^{١٥}.

وفاته

توفي شمس الدين الواعظ الكوفي ((سنة خمس وسبعين وست مائة. وعمره نحو اثنتين وخمسين سنة))^{١٦}.

المطلب الثاني : رثاء بغداد

لربما يعد شمس الدين الكوفي من الشعراء الذين لم ينالوا حظهم في الشهرة، لأسباب عديدة، أهمها أن الفترة التي عاشها كانت فترة نكبات وحروب ، ومثل تلك المراحل التاريخية لا تخلد الشعراء بقدر ما تخلد الحوادث، لذلك نجد أشعار تلك المرحلة مبثوثة في كتب التاريخ وليست مجموعة في مختارات أو دواوين، كذلك تأثر الحروب دوماً على ضياع الكتب أو إتلافها، فالإنسان يريد أن ينجو بنفسه وعائلته، أما مكتبته فيصعب نقلها، وإذا كان المعتدي همجياً من المؤكد أنه سيتلف الكتب، وهذا ما جرى إبان احتلال بغداد عام ٦٥٦هـ على أيدي المغول.

إن بغداد في ذلك الوقت لم تكن مدينة عادية، من الممكن أن تمر بحياة أي زائر لها مرور الكرام، بل كانت كما يصفها الشافعي رحمه الله: "هي الدنيا مجتمعة"^{١٧}، لقد تحولت هذه المدينة المدورة الصغيرة في بادئ الأمر إلى حاضرة الدنيا ومركز الحضارة، إن تاريخ هذه المدينة يمتد لآلاف السنين، فقد كانت تعرف بذات الاسم منذ أيام البابليين^{١٨}، وقد شهدت هذه المدينة عمراناً وتوسعا كبيرا في أيام زهو دولة بني العباس، فأصبحت مدينة ليس لها مثيل في ذلك الوقت^{١٩}

وهذه المدينة لم تمر بسهولة عند الشعراء، فقد سلبت قلوب الشعراء الذين كانوا يزورونها، فهذا أبو نؤاس البصري حين يدخل بغداد ينبهر وتسحره لدرجة أنها تنسيه من يحبهم، فيقول:

أيا	من	كنت	بالبصر	ة	أصفي	لهم	الودا
ومن	كانوا	موالي	ومن	كنت	لهم	عبدا	
ومن	كنت	أرعاه	وإن	مل	وإن	صدا	
شربنا	ماء	بغداد	فأنسانكم		جداً		
فلا	ترعوا	لنا	عهداً	فما	نرعى	لكم	عهدا

ولا تشكو لنا فقدنا فما نشكو لكم فقدنا^{٢٠}
 إذا كانت بغداد أشبه ما تكون بمدينة حلمية بالنسبة للشعراء، الذين كانوا ينسون فيها
 أوطانهم وأحبائهم، ويطالبونهم أن لا يعتبروا عليهم بسبب الغياب.
 وحين تعرضت هذه المدينة إلى نكبة سارع الشعراء إلى رثائها، ورثاء المدن ظهر بصورة
 واسعة في العصر العباسي، فقد أصبحت المدن أكثر رسوخاً في قلوب الشعراء، لأن
 قبلها كان أغلب الشعراء يتنقلون في البوادي، ولكن مع استقرار المدن ونموها اقتصادياً
 واجتماعياً أخذت الروابط تزداد بين المدن وسكانها، وفي تلك المرحلة -أعني أواخر
 العصر العباسي- أصبح سقوط المدن ظاهرة بسبب ضعف الدولة: "فالدول العربية التي
 سقطت من خلال التاريخ الوسيط كثيرة"^{٢١}، والإحساس بالمدن أصبح أكثر عمقاً
 وشعوراً عند الإنسان، ولهذا "برز في العصر العباسي إطار جديد للرثاء هو رثاء المدن،
 وقد كان جديداً بكل معاني الكلمة، إذ إن علاقة الإنسان بالمدينة لم تتوطد بالشكل
 الذي توطدت به في العصر العباسي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تشهد المدن
 الإسلامية قبل هذا العصر من الدمار والتخريب ما شهدته بعض مدن العراق في هذا
 العصر"^{٢٢}، ورثاء المدن لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تحتاج
 عصور الحكم في مراحل مختلفة.

ولم يكن سقوط بغداد على أيدي المغول أول خراب للمدينة، فقد سبقه خراب للمدينة
 بعد الفتنة التي حصلت بين الأمين والمأمون على الحكم، فتعرضت عاصمة الخلافة
 العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون. فنهبت بغداد
 وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السفلة والأوباش مناخاً صالحاً
 ليعيشوا فساداً ودماراً، ومما قيل في تلك المرحلة عن رثاء بغداد قول الخريفي:

يا بؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
 أمهلها الله ثم عاقبها حين أحاطت بها كبائرها
 بالخنس والقذف والحريق وبالخراب التي أضحت تساورها

حلت ببغداد وهي آمنة داهية لم تكن تحاذرها^{٢٣}

فالشاعر هنا يعلل سبب الدمار بالكبائر، وكأن ما جرى في بغداد عقوبة إلهية، ويبدو في ذلك الرثاء نوع من المخاتلة، وعدم إبراز السبب الرئيس ألا وهو ظلم الحكام، ويرى شاعر آخر سبباً مختلفاً لما جرى ببغداد، بحسب رؤية الشاعر، فيقول أبو الشيص:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زمانا قرّة العين
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم وكان قربهم زينا من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوما ما ذكرتهم إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهرٌ وصدّعهم والدهر يصدّع ما بين الفريقين^{٢٤}
فهنا يرى الشاعر أن بغداد أصابها الحسد بسبب جمالها وتطورها، وهناك العديد من المراثيات التي تخص هذه المدينة الجميلة.

أما رثاء شمس الدين الكوفي لبغداد فيعد من أرق ما قيل، حتى يصنّفه الدارسون بأنه شيخ رثاء بغداد، وشاعر النكبة، لكثرة تفجعه وتسجيله لأحداث تلك المدينة الزاهرة التي نكبت فجأة وتحولت لدمار وركام.^{٢٥}

لقد قضى الشاعر مرحلة مهمة في حياته في بغداد، يعيش فيها بعز ورغد، وكانت تلك مرحلة ذهبية في حياة البغداديين، ولهذا شعر الكوفي بهذا الانتماء الشديد إلى بغداد، فهذه المدينة كانت تسحر قلوب كل زائريها، ولذلك حين نزلت بها النوازل وحلت بها الكوارث والنكبات، لم يكن أمام الكوفي إلا التفجع والتحسر على بغداده التي يحب، ولربما من أشهر قصائد الرثاء التي شاعت على مختلف العصور قصيدة الكوفي:

عندي لأجل فراقكم آلام فالأم أعذل فيكم والام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً لا تعذّله فالكلام كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على خدي إلا أنه نمام
ويذيب روحي نوح كل حمامة فكأنما نوح الحمام حمام
إن كنت مثلي للأحبة فاقداً أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها يا دار ما صنعت بك الأيام

أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا
يا دار أين الساكنون وأين ذي
يا دار أين زمان ربك مونقاً
يا دار مذ أفلت نجومك عمنا
فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم
فمتى قبلت من الأعادي ساكناً
يا سادتي أما الفؤاد فشيق
والدار مذ عدت جمال وجوهكم
لا حظ فيها للعيون وليس لل
وحياتكم إني على عهد الهوى
فدمي حلال إن أردت سواكم
يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم
لا كتبكم تأتي ولا أخباركم
نغصتم الدنيا علي وكلما
ولقيت من صرف الزمان وجوره
يا ليت شعري كيف حال أحبتي
مالي أنيس غير بيت قاله
والله ما اخترت الفراق وإنما
لم يبق فيك بشاشة تستام
اك البهاء وذلك الاعظام
وشعارك الإجلال والإكرام
والله من بعد الضياء ظلام
فقد الهدى وتزلزل الإسلام
بعد الأحبة لا سقاك غمام
قلق وأما أدمعي فسجام
لم يبق في ذاك المقام مقام
أقدام في عرصاتها إقدام
باقٍ ولم يخفر لدي ذمام
والعيش بعدكم علي حرام
نار لها بين الضلوع ضرام
تروى ولا تدنيكم الأحلام
جد النوى لعبت بي الأسقام
ما لم تخيله لي الأوهام
وبأي أرض خيموا وأقاموا
صب رمته من الفراق سهام
حكمت علي بذلك الأيام^{٢٦}

إن هذه القصيدة تمثل الحزن والألم بأقصى صورته، فالشاعر بدأ يفقد اهالي بغداد الذين كانت المدينة تضح بوجودهم، وكانوا يمثلون البهجة والفرح، إن الشاعر يختزل بغداد بصورة شخص يحبه، وهذا الشخص فارقه فجأة، الشاعر يمثل صوت المحرومين من حب المدينة وحنانها، بل أنه مثل صوت كل مفارق في قوله "إن كنت مثلي للأحبة

فاقدا" وهنا يدعو الشاعر كل من فارق أهله ودياره أن يقف على أطلال تلك الدار وينشد قصيدة أبي نؤاس:

يا دار ما فعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تضام^{٢٧}
 إن مفهوم المدينة يتمظهر في فكر الشاعر بأهلها الذين هجروها، فهذه المدينة التي كانت تزخر بالابتسامة ثم اختفت تلك البشاشة، وذلك البهاء، فلم يعد هناك إجلال لأحد ولا إكرام، إن الخراب الذي عمّ المدينة - بحسب رؤية الشاعر - قد شمل أرضها وسماها، حتى أن نجومها أفلت، فلم يعد ليل بغداد مضيئاً.
 إننا نجد أن الشاعر يخاطب بغداد بقوله "يادار" فبغداد كانت تمثل بيت الشاعر ومأواه، ولذلك لم يصرح باسمها، حزناً وكمداً، وكأن لفظها صار يشكل ثقلًا على لسانه، فاستعاض عنها بصفات علو ورفعة "البهاء، الإعظام، الإجلال، الإكرام، الضياء".
 إن استعمال الشاعر المتكرر لحرف النداء "يا" الذي يدل على بعد المنادى، يجعل القارئ يشعر ببعد المسافة التي أصبح فيها الشاعر عن محبوبته بغداد، كذلك استعماله لأدوات الاستفهام يعطي انطباعاً جلياً للقارئ بارتباك الشاعر وشدة قلقه.
 ومن القصائد المميزة أيضاً المليئة بالعاطفة والحزن تجاه بغداد قصيدة الشيخ شمس الدين الكوفي التي يقول فيها:

ن	لم	تقرح	أدمعي	أجفاني	من	بعد	بعدكم	فما	أجفاني!
إنسان	عيني	مذ	تتاءت	داركم	ما	راقه	نظر	إلى	إنسان
يا	ليتني	قد	مت	قبل	فراقكم	ولساعة	التوديع	لا	أحياني
ما	لي	وللأيام	شتت	صرفها	حالي	وخلاني	بلا	خلان	
ما	للمنازل	أصبحت	لا	أهلها	أهلي	ولا	جيرانها	جيراني	
وحياتكم	ما	حلها	من	بعدكم	غير	البلى	والهدم	والنيران	
ولقد	قصدت	الدار	بعد	رحيلكم	ووقفت	فيها	وقفة	الحيران	
وسألتها	لكن	بغير	تكلم		فتكلمت	لكن	بغير	لسان	
ناديتها	: يا دار	ما صنع	الأولى		كانوا	هم	الأوطار	في	الأوطان

أين الذين عهدتهم ولعزهم ذلاً تخر معاقد التيجان
كالوا نجوم من اقتدى فعلهم ييكي الهدى وشعائر الإيمان
قالت غدوا لما تبدد شملهم وتبدلوا من عزهم بهوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع أبداً ويخرج من أعز مكان
أفتتهم غير الحوادث مثلما أفنت قديماً صاحب الإيوان
لما رأيت الدار بعد فراقهم أضحت معطلةً من السكان
ما زلت أبكيهم وألثم وحشةً لجمالهم مستهدم الأركان
حتى رثى لي كل من لا وجده وجدي ولا أشجانه أشجاني
أترى تعود الدار تجمعنا كما كنا بكل مسرة وتهاني
إذ نحن نغتتم الزمان ونجتني بيد الأمان قطوف كل أمان
والدهر تخدمنا جميع صروفه والوقت يعدينا على العدوان
والعيش غص والدنو ممزق بيد الوصال ملابس الهجران
هيهات قد عز اللقاء وسددت طرق المزار طوارق الحدثان
مالي أردد ناظري ولا أرى ال أحباب بين جماعة الإخوان
والهفي واوحدتي واحيرتي واوحشتي واحر قلبي العاني
سرتم فلا سرت النسيم ولا زها زهر ولا ماست غصون البان
مالي أنيس بعدكم غير البكا والنوح و الحسرات والأحزان
يا ليت شعري أين سارت أم أين موطنكم من البلدان^{٢٨}
عيسكم

يصف الشاعر نفسه بالقسوة وغلظة القلب إن لم ييك ويذرف الدموع الغزيرة على فراق أهله من بني العباس، كما أنه لم يعد هناك بعد هذا الرحيل والفراق ما يسعد عينه أو يسره النظر إليه، فيتمنى الشاعر لنفسه الموت وعدم الحياة قبل هذا الحدث وخاصة قبل ساعة الفراق والرحيل، ثم يتعجب الشاعر من الزمان الذي خصه بهذا الحدث الذي بسببه أصبح بلا أصدقاء ولا أخلاء وأحبة.

ومن القصائد الجميلة أيضا في رثاء بغداد قوله :

بانوا ولي أدمع في الخد تشبك ولوعة في مجال الصدر تعرك
بالرغم لا بالرضى مني فراقهم ساروا ولم أدر أي الأرض قد
سلكوا

يا صاحبي ما احتيالي بعد بعدهم عز اللقاء وضافت دونه حيلي
يعوقني عن مرادي ما بلت به أروم صبرا وقلبي لا يطاوعني
يا نكبة ما نجا من صرفها أحد تمكنت بعد عز في أحبنا
لو أن ما نالهم يفدى فديتهم ربع الهداية أضحى بعد بعدهم
والشرك منجبر، والملك منكسر أين الذين كل الوري حكموا
أشر علي فأن الرأي مشترك فالقلب في أمره حيران مرتبك
كما يعوق جناحي طائر شرك وكيف ينهض من قد خانه الورك
من الوري فاستوى المملوك والملك أيدي الأعادي فما أبقوا ولا تركوا
بمهجتي وبما أصبحت أملك معطلا ودم الإسلام ينسفك
والحق مستر والستر منهتك أين الذين اقتنوا، أين الذي
ملكوا

وقفت من بعدهم في الدار أسألها عنهم وعمّا حووا فيها وما ملكوا
لا تحسبوا الدمع ماء في الحدود جرى وإنما هي روح الصب تنسبك^{٢٩}

إن حديث الشاعر عن بغداد حديث الحب المفارق لأحبابه، لقد حول الشاعر بغداد من مدينة إلى حبيبة، فهو يقف على أطلالها ويبكي آثارها، وهذه المصيبة حلت على جميع البشر، ويعني بهم سكان بغداد، من ملكها وحتى رعيتها، والشاعر يعتبر سقوط بغداد هتك للحرمت والدين، وكشف للمحارم والمقدسات.

إن شمس الدين الكوفي الشيخ والمعلم قد صار يحذر الناس ويعظمهم، "لما شاهد ترب الرصافة وقد نبشت قبور بعض الخلفاء وأحرقت تلك الأماكن وأبرزت العظام والرؤوس، كتب على بعض الحيطان:

إن ترد عبرة فتلك بنو العبا س حلت عليهم الآفات
استبيح الحريم إذ قتل الأحياء منهم وأحرق الأموات^{٣٠}
فهذا الرجل الفاضل كان واعظاً في كل وقت ومحذراً للناس ورأى أن ما حلّ ببني
العباس يمثل درساً يجب أن يعيه كل الملوكة.

ومن القصائد التي قالها بعد غزو التتار لبغداد قوله :

أين سارت ترى حداة العيس	بحيبي	وواحد	وأنيسي؟
حين ساروا حثوا الركاب ولم يل	ووا	على راحة	ولا تعريس
جرعوني من الفراق كؤوساً	مرة	ما أمرها	من كؤوس
فتبدلت بعد عزّ بذلّ	وتبدلت	من نعيم	بيوس
وشرايبي دمعي وزادي حزني	وسقامي	من بعدهم	ملبوسي
أنا أشكو أمراض حزن وشوق	كل	عنها علاج	جالينوس
ياغصوناً غرستها في فؤادي	وبماء	المنى سقيت	غروسي
عندما رمت أن أنال جناها	رमित	بالذبول	والتييس
كنتم للقلوب روحاً وللأو	طان	روحاً وراحة	للنفوس
فدهاكم مالو فدى لغداه	كل	شخص بنفسه	والنفس
من لنا أن نراكم وإذا جئنا	إليكم	وسعينا	بالرؤوس
لو كتبنا ما قد لقينا من الحزن	إليكم	لكان ملء	الطروس
ومغان كانت بكم فرحات	بدلت	بعد بشرها	بالعبوس
ثم عاثت أيدي صروف الليالي	في	الجناب الممتع	المحروس
ياديّار الأحباب ما صنع الدهر	المعادي	بربعك	المأنوس
أين تلك الوجوه فيك منيرا	ت	حسان مضيئة	كالشموس
كل وجه كالشمس لكن سرى من	أوج	سعد إلى حضيض	النحوس
قد وقعنا في الدار سكرى ولكن	سكر	حزن لاسكرة	الخندريس

حين أضحت عواطلاً بعد ما كا نت تجلى في زينة كالعروس
 ما انتفاعي من بعدهم بوقوفي في محل بال ورسم دريس^{٣١}
 إن ارتباط المدينة بذهن الشاعر جعلته يقاسي الأسى والشجن الذي طفا على سطح
 مشاعره وقصائده، فهذا تجسيد لحالة طبيعية من العشق بين الشاعر والمدينة، فحنينه
 الدائم جعل المدينة تمتزج بروحه وكيانه، فكلما حدث طارئ في الطبيعة يهيج حنينه
 لتلك المدينة ، فيقول:

بدا البرق من حزوي فهاج حنينه	وهبت صبا نجد فزاد أنينه
وغنى له الحادي بأيام حاجر	ففاضت بأمطار الدموع جفونه
وذكره العيش الذي كان وانقضى	فكاد جوى يطرا عليه جنونه
غريب بعيد الدار فارق أهله	كئيب وحيد بان عنه قرينه
مريض إذا هب النسيم من الحمى	يطيب له خفاقه وسكونه
تحمل أثقال الغرام وماله	معين على حمل الغرام يعينه
وصان الهوى في قلبه كل جهده	فلما نأى الأحباب بان مصونه
وظن بأن الدهر يجمع شمله	بمن يتمنأهم فخابت ظنونه
أهيل الحمى بنتم فدمعي مطلق	وقلبي قد ضاقت عليه شجونه
أهيل الحمى لا أوحش الربع منكم	لقد كنتم للربع زيناً يزينه
مررت على الوادي وكان زمانكم	بلابله تشدو وتجري عيونه
فأبصرته من بعدكم وهو قد عفا	وأقفر منه سهله وحزونه
فناديته أين الذين عهدتهم	هنا وغدير العيش صاف معينه؟
فقل لي الوادي نأو وترحلوا	وهذا فؤادي للتنائي حزينه
فقلت فهل يسخو الزمان بعودهم	فقال لعل الدهر يسخو خؤونه
إلى أن يعود الماء في النهر جاريا	تموت به أطياره وغصونه.

إن نكبة بغداد كانت كبيرة على أهلها وعلى كثير من عشاقها، وهذه الصدمة ترك أثراً كبيراً وجرحاً في نفوسهم، ولأن الشعر معبرٌ عن الروح والعاطفة، فقد ظهرت المراثيات تتوالى في بكاء بغداد، وهذا الحزن المتكرر والمرير في شعر الكوفي يعكس مدى أهمية تلك المدينة، لأننا نجد في قصائده ذاكرة مضيئة لبغداد ولخلافتها التي كانت مشرقة في أيامها، وما حلَّ ببغداد عكس الخراب الذي طال تلك الحاضرة التي مازالت إلى اليوم تقاوم الدمار وتعود كالعنقاء فتطير من رماد احتراقها.

الملخص:

فقد حظيت مدينة الكوفة بتاريخ عميق وأصيل عبر مختلف العصور وبجميع نواحي الحياة الدينية والسياسية والأدبية والاجتماعية، ولا بد لي أن أتحدث عن بعض تلك الجوانب " الأدبية" عن شخصية من شخصيات هذه المدينة هو شمس الدين محمد الواعظ الهاشمي الكوفي الذي يمتاز شعره بمكانة كبيرة في جوانب الحياة المختلفة، لما للشعر من أثر عميق في نفسية المتلقي، ولا سيما الإنسان العربي فهو كالدّم يسير في عروقه، مما يؤكد ويعزز الأهمية الكبرى التي يحظى بها الشعر والشاعر فهو لسان حال قومه يكشف عن همومهم وعواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم تجاه ما يعانون من مشاكل وهموم، لذلك نرى شاعرنا قد بين حال وطنه وما عاناه من محن هطلت عليه كالطرر وقد بين ذلك من خلال الأشعار التي رثى بغداد إبان غزو المغول وسقوطها عام (٦٥٦هـ) وهذه المراثي جعلته شيخ رثاء بغداد وبهذه التسمية يكشف عن مكنون حبه لوطنه والجراحات التي ألمت به، كما أنه تغزل في مراثيه، ببغداد وهي تقطر شوق ومحبة لهذا الوطن الذي عانى من المصائب والشدائد الكثير، ولم يتوقف الرناء عنده بل رثى بعض شخصيات وطنه التي كان لها الأثر الكبير في نفسية الكوفي، ومن الأغراض الشعرية الأخرى التي تناولها الشاعر المديح وتأسيساً على ذلك سيتناول

البحث هذه الشخصية الكوفية وفق الخطة الآتية :

المطلب الأول: حياته

ستتناول الدراسة فيه: اسمه ونسبه، ولقبه، ونشأته، وأولاده، شيوخه وتلاميذه، المهنة التي مارسها، ووفاته.

المطلب الثاني : رثاء بغداد

وستتناول فيه أهم المراثي التي كتبها بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ على أيدي المغول، وهو بذلك شكل جزءاً من ذاكرة المدينة المدمرة.

أما المنهج الذي سأتبعه في الدراسة فهو المنهج التحليلي الوصفي .
الخاتمة والنتائج

في نهاية البحث نصل إلى النتائج التالية :

١- لقد شكل الكوفي رمزاً للوفاء والوطنية والتعبير عن حب الوطن والارتباط الروحي والوجداني.

٢- كان لشعر الكوفي أهمية ملموسة في رصد الأحداث التي حلت على بغداد، وهذا جزء من أرشفة أحزان المدينة وتسجيل ما حلّ بها.

٣- حملت قصائد الكوفي مفهوماً إنسانياً كبيراً ووعظياً، فعاطفته تجاه بغداد جعلته يتعامل بإنسانية عالية، فيفكر بأهل هذه المدينة وتراثها بل وحتى أحجارها.

٤- كان أسلوب الشاعر أقرب لأساليب العشاق الذين تغنوا بحبيباتهم، فوظف مخزونه التراثي ومرجعياته الشعرية والفكرية كلها للتعبير عن ألم وحسرة الفراق.

٥- تميز أسلوبه بكثرة المحسنات البديعية التي كانت في تلك المرحلة تشكل ظاهرة في القصيدة، فقد أفاد الشاعر من معرفته بفنون البلاغة وأساليبها.

الهوامش:

١ - فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاعر الكتبي حققها د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٤م : ١٠٢ / ٤ . ودواوين كوفية، جمعها وحققها، هلال بن ناجي ، دار الينايع ، دمشق دار الهلال للطبع والنشر والتوزيع، دمشق ط ١ ، ٢٠٠٨ : ٩.

٢ - دواوين كوفية : ٩ .

٣ - عيون التواريخ ، محمد بن شاعر الكتبي ، تحقيق ، نبيلة عبد المنعم داود ، وفيصل السامر ، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٤م : ١٠٧ / ٢١ .

٤ - الوافي بالوفيات ، الصفدي ، باعتناء هلموت ريتز - تهران - إيران ، نقلا عن نشرة فيسبادن الصادرة سنة ١٩٦١ : ٩٧ / ٢ .

- ٥ - عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان، محمد بن بهادر الزركشي (ت ٥٧٩٤هـ) مصورة مخطوطة الفاتح بالأسطوانة رقم ٤٤٣٤: ٣٥٤، نقلا عن دواوين كوفية: ٩.
- ٦ - ذيل مرآة الزمان، قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨٠ هـ، ١٩٦٠م: ١٥/٣.
- ٧ - دواوين كوفية: ٩
- ٨ - دواوين كوفية: ٩
- ٩ - المصدر نفسه: ٩
- ١٠ - المصدر نفسه: ٨٣
- ١١ - ديوان شمس الدين الكوفي "٦٧٥هـ"، تحقيق: أ.د. ناظم رشيد شيخو، دار الضياء، الأردن، ط ١، ٢٠٠٦، ٣٦
- ١٢ - دواوين كوفية: ١١
- ١٣ - تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن الفوطي عبدالرزاق بن أحمد الشيباني، دمشق، ١٩٦٢، ق ٤، ١، ٢٣٣، ودواوين كوفية: ١٠.
- ١٤ - مدارس بغداد في العصر العباسي، عماد عبدالسلام رؤوف، بغداد، ١٩٦٩: ٤٨
- ١٥ - تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ودواوين كوفية: ١٢
- ١٦ - دواوين كوفية: ١٢
- ١٧ - تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج ١، ٤
- ١٨ - ينظر: العراق في التاريخ، صالح أحمد العلي، ٣٧٦
- ١٩ - ينظر: البلدان، اليعقوبي، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ط ٣، ١٩٥٧م، ٣
- ٢٠ - ديوان أبي نؤاس "الحسن بن هانئ" توفي ١٩٥هـ، حققه وضبطه وشرحه: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م، ٥٤٧
- ٢١ - فنون الادب العربي، الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٥٥، ٤٠
- ٢٢ - في الأدب العباسي، الرؤية والفن، عز الدين اسماعيل، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٧٥، ٣٦٦
- ٢٣ - الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، دار الثقافة، بيروت، ط ١، د.ت، ج ٢، ٨٤٤
- ٢٤ - ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره، صنعه: عبد الله الجبوري، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م، ٤٢
- ٢٥ - ينظر: الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ، محمد حسين مجيد، مجلة آداب المستنصرية، ع ٤، ١٩٨٦م، ١٠٤

٢٦ - دواوين كوفية ، ٤٤-٤٥

٢٧ - ديوان أبي نؤاس ، تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي-بيروت ، ط ١ ، ١٩٥٤ : ج ٢ ، ٤٠٧ .

٢٨ - دواوين كوفية ، ٤٨-٤٩

٢٩ - دواوين كوفية ، ٤٨-

٤٩

المصدر نفسه ، ٣٠

٣١ - دواوين كوفية ، ٣٣-٣٤

المصادر والمراجع :

١-البلدان، اليعقوبي، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ط ٣، ١٩٥٧م

٢-تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٣-تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن الفوطي عبدالرزاق بن أحمد الشيباني، دمشق، ١٩٦٢.

٤-دواوين كوفية، جمعها وحققها، هلال بن ناجي ، دار الينابيع ،دمشق دار الهلال للطبع والنشر والتوزيع، دمشق ط ١، ٢٠٠٨م.

٥-ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره، صنعه: عبد الله الجبوري، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٤

٦-ديوان أبي نؤاس "الحسن بن هانئ" توفي ١٩٥هـ، حققه وضبطه وشرحه: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.

٧-ديوان شمس الدين الكوفي "٦٧٥هـ"، تحقيق: أ.د. ناظم رشيد شيخو، دار الضياء، الأردن، ط ١، ٢٠٠٦.

٨-ذيل مرآة الزمان ،قطب الدين موسى بن محمد اليونيني ،حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠م.

- ٩- الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ، محمد حسين مجيد، مجلة آداب المستنصرية، ع٤، ١٩٨٦م
- ١٠- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، دار الثقافة، بيروت، ط١، د.ت
- ١١- العراق في التاريخ، صالح أحمد العلي، مطبعة جامعة الموصل، العراق، ١٩٨١م.
- ١٢- عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان، محمد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) مصورة مخطوطة الفاتح بالأستانة رقم ٤٤٣٤.
- ١٣- عيون التواريخ، محمد بن شاکر الکتبی، تحقیق، نبیلة عبدالمنعم داود، وفیصل السامر، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٤م.
- ١٤- فنون الادب العربي، الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٥٥م.
- ١٥- فوات الوفيات والذیل علیها، محمد بن شاکر الکتبی حققها د. إحسان عباس، بیروت، ١٩٧٤م.
- ١٦- فی الأدب العباسي، الرؤية والفن، عز الدين اسماعيل، دار النهضة العربية، بیروت، ط١، ١٩٧٥م.
- ١٧- مدارس بغداد فی العصر العباسي، عماد عبدالسلام رؤوف، بغداد، ١٩٦٩
- ١٨- الوافي بالوفيات، الصفدي، باعثناء هلموت ريتز – تهران – إيران، نقلا عن نشرة فيسبادن الصادرة سنة ١٩٦١م.